الأَزهر قلعة الوطنية المصرية

الأستاذ/ صبري أبو المجد

من أبرز مميزات الحركة الوطنية المصرية التي نبتت في نهاية القرن التاسع عشر، واشتد ساعدها مع مطلع القرن العشرين، أنها كانت لجميع أبناء الشعب على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم. وكانت تعتمد على كل فئات الشعب المسلم والمسيحي، الشاب والكهل، الغني والفقير، العامل والصانع، التاجر والزارع، الطالب والموظف. وكانت قيادات هذه الحركة كما كانت جماهيرها تؤمن إيمانًا صادقًا بأن الدين لله، والوطن للجميع.

بذل الاستعمار البريطاني الجهد والمال والنفوذ؛ للإيقاع بين أبناء الوطن الواحد تنفيذًا لمبدئه الأساسي (فرق تسد) فلم يستطع. حيث لم تمكنه جماهير الشعب من تحقيق مخططاته. لقد كانت جماهير الشعب تؤمن بصدق إحساسها، ودقة مشاعرها، وعمق وعيها، أن الاستعمار لا يبغي من وراء التفرقة بين أبناء الوطن الواحد إلا استمرار سيطرته واحتلاله، واستغلاله لمصر ولشعب مصر. وكانت هذه الجماهير – بما فطرت عليه من وطنية صادقة وإيمان خالص – تعتقد أنه لا نجاح لأية حركة وطنية إلا بوحدة وقوة وتماسك الجبهة الداخلية.

ومرة لاحت للاحتلال فرصة ذهبية للإيقاع بين المسلمين والمسيحيين عندما اغتال إبراهيم ناصف الورداني (من شباب الحزب الوطني) في الساعة

الواحدة بعد ظهر يوم ٢٠ من فبراير ١٩١٠ بطرس غالي باشا ناظر النظار، واعترف الورداني فور تسليم نفسه لرجال البوليس، كما جاء في محضر التحقيق الذي نشرته صحيفة (الجريدة)، التي كان يصدرها وقتئذ الأستاذ أحمد لطفي السيد، أنه اغتال بطرس باشا غالي "لأنه وقع اتفاقية السودان عام ١٨٩٩، التي أشركت بريطانيا في حكم السودان، ولأنه رأس المحكمة المخصوصة التي حاكمت أبناء دنشواي، ولأنه أعاد قانون المطبوعات الذي كمم الصحافة وقضى على حريتها، ولأنه عاكس الجمعية العمومية التي كانت تنظر مشروع امتياز قناة السويس الذي كان يؤيده بطرس باشا، ولأنه يحارب الوطنية المصرية".

ولأن القاتل مسلم، القتيل قبطي، فقد استغل الاستعمار البريطاني الفرصة للإيقاع بين عنصري الشعب، وأقام مؤتمرًا طائفيًا، ولكن المؤتمر فشل، وأقام المصريون مؤتمرًا آخر باسم (المؤتمر المصري) كتب له التوفيق، فقد راح المستنيرون من أبناء البلاد من المسيحيين والمسلمين، يبذلون جهدهم لحماية الجبهة الداخلية، وتفويت الفرصة على المحتل. وكان ممن اشتركوا في تلك الحملة الأستاذ نصيف المنقبادي، الذي كتب خطابًا تاريخيًا إلى رئيس تحرير جريدة الأكلير الفرنسية، يقول فيه: اسمح لي بصفتي مصريًا أن أقرر بعض نقاط تتعلق بمقتل بطرس باشا غالي رئيس الوزارة المصرية، ليس من اختصاصي تقدير عمل إبراهيم الورداني، ولكني أريد أن أبدد التهم التي أشاعها الإنجليز في العالم، فقد أتهموه بأنه (مختل الشعور)، (قليل الذكاء)، وأنه (أطاع داعي التعصب بقتله بطرس غالي المسيحي، الذي يقولون إنه كان حرًا ووطنيًا)، أنا أعرف الورداني شخصيًا، وهو فتى

شديد الذكاء كثير المعارف، ملء صدره الوطنية الحرة، وليس رجلًا متعصبًا، ولم يقدم على عمله إلا بداعي الوطنية المتحمسة، بعد أن ضاق صدره كما ضاقت صدورنا جميعًا بالسياسة الإنجليزية، التي كان بطرس باشا ينفذها باجتهاد. وأنا بصفتي قبطيًا، أعني مصريًا مسيحيًا، أصرح بأن حركتنا هي حركة وطنية مجردة ترمي إلى الترقي والحرية، وما تهمة التعصب إلا من الإشاعات التي يشيعها الإنجليز لتبرير المظالم التي يرتكبونها في مصر.

وتفشل المؤامرات البريطانية وتبقى الوحدة الوطنية سليمة قوية، ويعمل المسيحيون إلى جانب المسلمين في الأحزاب، والمنظمات الوطنية. وعندما تعلن بريطانيا الحرب على القوى الوطنية إثر قيام الحرب العالمية الأولى، يكون المعتقلون المسلمون إلى جانب إخوانهم المسيحيين، وتكون منافي (مالطة) و(سيشل) وغيرهما للمسلمين المصريين وللمسيحيين المصريين في وقت واحد.

وتقوم ثورة ١٩١٩ ويشترك فيها المصريون جميعًا تحت شعار (وحدة الهلال والصليب)، ويوجه أحد قادة الإنجليز اللوم إلى نجل بطرس باشا غالي قائلًا: (كيف تضع يدك في يد من قتلوا والدك؟" فيرد قائلًا: (أضع يدي في يد من قتلوا والدي، ولكني لا أضع يدي في يد من قتلوا وطني".

الأزهر قلعة الوطنية المصرية:

لقد كانت ثورة ١٩١٩ مختمرة في قلوب المصريين، لما لاقوه من الاحتلال البريطاني وخاصة في سنوات الحرب العالمية الأولى، فلم تكد تنتهي تلك الحرب حتى بدأت الطلائع الوطنية المصرية تتأهب للمطالبة

بحقوق البلاد، ولم تكد السلطات البريطانية تعتقل بعض قادتها، وعلى رأسهم سعد زغلول، حتى هب الشعب على بكرة أبيه يعلن الثورة على الاحتلال.

ومنذ ٩ مارس بداية الثورة، والأزهر حصن الثورة الحصين، إليه تتجه جماهير الشعب، وفي حرمه يلتقون، ومن فوق منبره يستمعون إلى خطباء الثورة، وهم يحرضون الشعب على الثورة ضد الاحتلال. في اليوم الثاني من أيام الثورة (١٠ مارس) أذاع الطلبة المنشور التالي: "غدًا الثلاثاء ستتحرك المظاهرة السلمية الكبرى في الساعة العاشرة صباحًا من الأزهر الشريف، مارة بالأحياء الوطنية، تتقدمها الموسيقى برياسة حسب الله والأعلام، حتى تكون الساعة الثانية عشرة تمامًا أمام قصر العيني، وهناك ينضم إليها فريق من المحامين والأطباء والعلماء والمعلمين والموظفين وطلبة المدارس العالية، الذين يسرهم أن يكونوا مثالًا عاليًا للشعب".

ومنذ فجر اليوم التالي لإذاعة هذا المنشور، كانت جماهير الشعب تزحف إلى الأزهر، وكان العلماء وطلاب الأزهر يستقبلون الجماهير ويجلسونهم في أماكنهم في نظام رائع، ومن فوق منبر الأزهر كان خطباء الثورة يلقون خطبهم النارية، التي تحرض الشعب على الثورة. وكان من بين هؤلاء الخطباء: الشيخ مصطفى القاياتي، والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ محمود أبو العيون، والشيخ عبد ربه مفتاح، والشيخ مُحَمَّد عبد اللطيف دراز، والشيخ عبد الباقي سرور، وكلهم من علماء الأزهر.

ثم القمص مرقس سرجيوس، والقمص بولس غبريال، ومُحَمَّد أبو شادي

بك، ومُحَّد كامل حسين، ومُحَّد لطفي المسلمي، ويوسف الجندي، وإبراهيم عبد الهادي، وحسن يس، ومُحَّد يوسف، ومحمود عبد السلام، ومُحَّد شكري، ومُحَّد عبد المجيد بدر، ومُحَّد أمين صدقي، وزكي مبارك، ومحجوب ثابت، وأمين الخولي، وأحمد أمين وغيرهم، وغيرهم من شباب الأزهر والمعاهد العليا، والمدارس الثانوية.

ويصبح الأزهر، كما يقول أستاذنا عبد الرحمن الرافعي مكانًا عامًا للخطابة، وهو المكان الفسيح الذي لم تستطع السلطة العسكرية اقتحامه ومنع الاجتماعات فيه؛ وذلك لمكانته الدينية، فكان ميدانًا تبارى فيه الخطباء من كل الطبقات، وقد ظهرت فيه شخصيات برزت بمواهبها الخطابية.

سرجيوس يخطب في الأزهر:

ووقف مرة على منبر الأزهر القمص سرجيوس بملابسه الكهنوتية – كان أول كاهن قبطي يعتلي منبر الأزهر – وبدأ يخطب بلهجة حماسية رائعة أثارت انتباه الحاضرين، وقال: كنت أسير يومًا في شارع كلوت بك فوجدت أطفالًا يلعبون أمام منزلهم، فتحدثت معهم حديثًا قالوا لي بعده: إن أمنا في المنزل وهناك بعض الجنود يعتدون عليها، فعجبت لأمرهم، وسألتهم: كيف ذلك؟ قالوا: وماذا نفعل؟ فصعدت إلى المنزل فوجدت امرأة يعتدي عليها جنود إنجليز. أتدرون من هؤلاء الأطفال ومن هي هذه الأم؟ فقال الجمهور: لا. وقال سرجيوس: هم فئة الموظفين، والأم هي مصر! عندئذ ثار الموظفون المصريون، فقال لهم: "إذن أظهروا شعوركم حيال أمكم مصر".

وكان أن قرر الموظفون الإضراب احتجاجًا على السياسة الاستعمارية البريطانية، وكان الموظفون في بداية الثورة قد اكتفوا بتوقيع عرائض الاحتجاج على اعتقال سعد وصحبه، ورفعها إلى السلطان، وكان استمرارهم في عملهم رغم الغليان الشعبي مثار دهشة بالغة. وكانت بريطانيا تبذل مع الموظفين محاولات معينة لضمهم إلى صفوفها، غير أن كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل، فقرر الموظفون الإضراب في ٢ أبريل لمدة ثلاثة أيام، غير أن اندفاع الحركة الشعبية وشمولها لكل جماهير الشعب قد مدت في أجل ذلك الإضراب ثلاثة وعشرين يومًا.

ويروي القمص سرجيوس قصة ذهابه إلى الأزهر للاشتراك في ثورة ١٩١٩، فيقول: "عندما كنت بالسودان أنشأت مجلتي (المنارة المصرية)، وجعلت منها متنفسًا لآرائي التقدمية، وكانت هي والخطب والعظات التي ألقيتها مثار إعجاب شديد، ونقد أشد.

وفي ذات يوم استدعاني مستر مور مدير الخرطوم وقال لي: إن الحاكم العام للسودان يطلب إليك أن ترحل في خلال أربع وعشرين ساعة.

فقلت له: أنا لست في لندن حتى يأمرني الحاكم العام بمغادرة البلاد في أربع وعشرين ساعة، أنا هنا في بلادي وليرحل هو إذا شاء.

فقال: لا تحرجني يا سرجيوس ونفذ الأمر.

فقلت: إن الطريقة التي تستطيع بها تنفيذ الأمر، هي أن تضع القيود في يدي، وتخرجني من بلادي في الجنوب قسرًا حتى أشهد العالم على استبدادكم.

وعمد الرجل إلى الملاينة فقلت له: إنني أريد أن أعرف السبب أولًا.

فقال لي: لو قلت لك السبب هل تعطيني كلمة شرف تعد فيها بمغادرة البلاد؟ ولما وافقت قال لي: أنت بطبعك تنزع إلى الحرية، ونحن نحكم هذه البلاد بالسيف، ولهذا فإن طبيعتك لا تلائمنا، وسوف نتعبك وتتعبنا!

وعدت إلى مصر في سنة ١٩١٥ وقبعت في بلدتي جرجا، حتى شب أولادي، فأردت أن ألحقهم بالمدارس واضطررت للسفر إلى العاصمة، واخترت لمقامي مسكنًا في حي الفجالة. وظلت حياتي موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة، حتى أحد أيام ١٩١٩ وكنت قابعًا في بيتي عندما سمعت ضجيجًا وصخبًا في الشارع، ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف "يحيا سعد، يحيا الاستقلال" ولما سألت عن السبب قيل لي إن المستعمرين قد اعتقلوا سعد زغلول الذي يطالب بالاستقلال التام، وهنا تدفقت الدماء حارة إلى رأسي، وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت في نفسي، فأسرعت إلى الشارع وانضممت إلى المتظاهرين، حتى انتهت بنا المظاهرة إلى الأزهر، وكان في تلك الفترة حصن الثورة الحصين وألقيت فيه عصا الترحال.

وظللت قرابة ثلاثة أشهر ألقي في كل يوم ما لا يقل عن خمس خطب بعد انقضاء الصلوات الخمس، وكنت قبل أن أتهيأ للخطابة أذكر كلمات الإنجليزي الذي طردني من السودان وأقول لنفسي: من يكره الحرية أكرهه، ومن يحاربها أحاربه. ولم أترك شارعًا أو مسجدًا أو كنيسة إلا خطبت فيها داعيًا لتعبئة الشعور ضد أعداء البلاد، وحينما احتاج الوفد للمال صحبت فتح الله بركات في جولة بين القرى، وكنت أظل الخطب في أهلها حتى أحس أن المستمعين قد وصلوا إلى مرحلة التضحية بأموالهم، فأشير

إلى فتح الله، وكان يحمل حقيبة كبيرة كحقيبة القومسيونجية، فيفتحها أمام المستمعين وإذا هي تمتلئ في لحظات.

وذات يوم كنا في ميدان الأوبرا، وكان أكثر من عشرين ألفًا قد وقفوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير، يستعدون للاستماع إلى خطابي، وصعدت على أكتاف طالبين، وفي وسط هذا الصمت الرهيب بدأت خطابي قائلًا: اهتفوا معي: يحيا الإنجليز، وبهت الجمع الحاشد لهول المفاجأة، وعدت أقول: لن أخطب حتى تهتفوا يحيا الإنجليز، الذين استطاعوا بظلمهم واستبدادهم وفجرهم أن يجعلوا منا هذه الكتلة الموحدة المقدسة الملتهبة. وصفق الجميع تصفيقًا يصم الآذان".

ومرة أخرى، هكذا يمضي القمص سرجيوس في ذكرياته عن ثورة ١٩١٩، فيقول: "كنت في السرادق الضخم الذي أقيم لسعد زغلول، تكريمًا له بعد عودته من المنفى، وكان زعيم الوفد في أوج عظمته ومجده، وأخذت الجماهير تنادي: سرجيوس سرجيوس سرجيوس، ووقف سعد (رحمه الله) قائلًا: "فليسمعنا خطيب الثورة كلمته".

وصمت الجميع، ووقفت أخطب فقلت: والله إنك لمجنون يا سعد، وبهت الجميع، ولكنني استطردت قائلًا: والله إنك لمجنون يا سعد إذ تقوم على دولة عظمى خرجت منتصرة من حرب عظمى، وتملك كل شيء ولا تملك أنت شيئًا، ثم تنتصر عليها! وفي كل مقطع من خطبتى كنت أكرر (والله إنك لمجنون يا سعد)، وفي نهاية الخطاب قام سعد من مكانه واحتضنني قائلًا: مجنون والله يا سرجيوس، وضجت الجماهير بالهتاف والتصفيق.

وذات يوم استدعاني كين بويز مدير الأمن العام، وقال لي: أنت عدونا الأكبر. وبت ليلتي في ثكنات قصر النيل نزيل غرفة جمعت في أحشائها كل أنواع البعوض والبق والبراغيث والفئران، وفي الصباح اقتادوني إلى أحد المعتقلات في رفح، وكان يزاملني فيه النقراشي، والقاياتي، وأبو شادي، والخولي، وغيرهم.

وهناك عكفت على قراءة القرآن ودراسة كتب التفسير، كما قرأت للرازي والنسفي والبيضاوي وتفسير الجلالين، والملل والنحل وغيرها، وذات يوم كنا نقف مع ضابط المعتقل فقال: إن المصريين المتوحشين قد قتلوا جنديين بريطانيين اليوم، ورد عليه أحد المعتقلين قائلًا: هذا أمر مؤسف.

فاندفعت أنا قائلًا: إن قتل جنديين بريطانيين يعد وحشية، وقتل الصبيان المصريين وحصدهم بالمدافع الرشاشة لأنهم يطالبون بالاستقلال هل هو في نظركم مدنية؟! وحقد علي الضابط الإنجليزي، ولذلك ظللت في المعتقل حتى أغلقته وجئت بمفاتيحه إلى القاهرة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٠، ثم صدر قرار بنفيي من القاهرة إلى بلدتي جرجا، ولكن نسيم باشا وزير الداخلية وقتئذ رفض تنفيذ أمر النفي، وقال: كيف أنفي رجلًا وصلتني ست زكائب احتجاجات من أجله من المسلمين والأقباط؟!"

ومن مذكرات القمص سرجيوس عن ثورة ١٩١٩، أن ضابطًا بريطانيًا قال له: لقد صبرنا عليك أربعين يومًا وأنت تخطب ضدنا في الأزهر.

وأجاب سرجيوس قائلًا: إذا كنت أنت لم تحتملني في بلادي ٤٠

يومًا، فكيف احتملناكم نحن في بلادنا أربعين عامًا؟!

ومما يذكر أن الكثير من أبناء الشعب كانوا يطلقون على سرجيوس لقب خطيب الثورة، ولقب (خطيب الأزهر).